عبق قريش في شعر
عبيد الله بن قيس الرّقيّات

م. م. ميادة عبد القادر عمران خطاب
جامعة بغداد/ كلية الآداب

توطئة:

شهد العصر الاموي (٤١- ١٣٢هـ) حكماً وراثياً وبناءً اجتماعياً وحضارياً جديداً، مهد ذلك بتطور مجالات العلوم الاخرى منها (الفكرية والعلمية والاقتصادية والادبية) بشكل واسع النطاق ولاسيما في بيئة الحجاز، فضلاً عن ذلك فقد شهد العصر اتساع حركة الفتوح فيه على الرغم من وجود احزاب واضطرابات وفتن أهلية وثورات داخلية، وصراعات سياسية عنيفة حول الخلافة، كل ذلك ادى الى انتعاش الحركة الادبية، ولاسيما الشعر السياسي، وشعر المذاهب الإسلامية، فتطور الادب وازدهر في تلك المدة، فظهرت لنا طبقة من الشعراء الذين نهضوا بهذه الحركة الادبية، فأثروا في الشعر العربي بما أضفوا إليه من تطور وتجديد- ولعل خير من يمثل ذلك الشاعر القرشي(١) عبيد الله بن قيس الرّقيّات الذي تفاعل مع احداث عصره، فانصهر بها انصهاراً، وانغمس فيها انغماساً فاندفع مشاركاً بيده ولسانه، فانعكست معالمها على حياته وشعره. فجاء شعره سلاحاً ذا حدين وصحيفة ناطقة لمبادئ وآراء مذهبه الزبيري، وقد اتخذ من السياسة ظاهرة فنية لابراز قدراته وطاقاته الابداعية، ومدى تعصبه لقبيلة قريش، لهذا نجدهُ يسلط الضوء عليها، وعلى اعلامها وشخصياتها مفتخراً أو مادحاً، وكثيراً ما نجدهُ يفتخرُ بنفسه وعراقة نسبه وشجاعة عشيرته المضرية التي لا تضم الا الفرسان الشجعان، ويكفيه فخراً واعتزازاً بان نسب قبيلته يرجع الى النبي الاعظم محمد (صلى الله عليه وسلم) القرش المكي، ومنها خلفاؤه الراشدون، والاوصياء والشهداء اذ يقول(٢):

نَحْنُ مِنّا النَّبيُّ الأُمِّيُّ والصَّدّيقُ   منّا التَّقيُّ والخُلَفَاءُ
وَقتيلُ الأَحْزابِ حَمْزَةُ مِنّا   أَسَدُ اللهِ والسَّنَاءُ سَنَاءُ
وَعَليٌّ وَجَعْفَرُ ذُو الجنَاحَيْـ   ـنِ هُنَاكَ الوَصيُّ والشُّهداءُ
والزُّبَيْرُ الذي أجابَ رسُولَ الـ   ـلّهِ في الكُرْب والبَلاءُ بلاءُ
وَالّذي نَغَّص ابنَ دَوْمةَ ماتو   حِي الشياطينُ والسُّيُوفُ ظماءُ

ومن شدة اعتزازه بعراقة نسبه وعشيرته فإنه يقول[٣]:

إنّــــــي امْـــــرُؤٌ لا يُــــــزْدرى   دَفعـــي عـــنَ اعْــراضِ العَشـــيرةْ
فـــــي بَيْتْهـــا حسَـــباً وَمـــنْ   أخــــلاقٍ صَــــالحها ســــرِيَرهْ
أنْفــــــي القراقيــــرَ الصِّـــــغا   رَ وأحْطِهـــمُ الفُلْـــكَ الكَبيـــرَةْ
أُمِّــــي لقَـــيْسٍ فـــي الـــذُّرى   وَأبـــي لعاتكِــــةَ المَهيــــرةْ
بِنْـــت العَواتـــكِ مـــنْ بنـــيِ   ذَكْـــوانَ لا عَـــدمْى فقيَـــرةُ
فـــي بَيْتهـــا عَـــدَدُ الرّجَـــا   لِ وَحَوْلهـــاَ مُضَـــرُ الكثيـــرُهْ
بُنيـــــتْ عَلَيْهــــا مِثْلمَـــــا   بُنيَــتْ عــل البَيْــتِ الضَّــفيرَهْ[٤]

من خلال الابيات تتجلى شجاعة الشاعر، ونخوته الاصيلة وطيب أصله، وعراقة نسبه، مستمداً شجاعته وقوته وعراقة أصله من عشيرته المضرية التي لا تضم إلا الشجعان، فأمهُ قتيلة من نسل اليأس بن مضر، وعمه قيس عيلان بن مضر، وأبوه من عامر بن لؤي.

ويمضي الشاعر مفتخراً بنسبه، وعراقة أصله الطيب، وبقبيلته قريش، اذ يقول[٥]:

نَحْــــنُ الصَّــــريحُ إذا قُرَيْـــ   شُ قـــامَ مِنْهـــا النّاســـبُ
مِـــنْ ســـرّهَا وأرُومِهـــا   إذْ لـــــلأَرُومِ مراتــــبُ

وعظم الشاعر من شأن قبيلته قريش، ورفع منزلتها، بين القبائل معتزاً بنسبه لها، إذ يقول[٦]:

وَقَـــدْ عَلمـــتْ قُـــرَيشُ   أنّنـــا فَـــرْعُ إذا أنتســـبوا
مَـــرَاجِحُ فـــي صُـــفُوفِهمُ   وفرســـــانٌ إذا رَكبُـــوا
وأخْـــوَ الـــي بَنُـــو ليْـــثٍ   وَضَـــنْءُ نســـائهم نُصُـــبُ
هـــمُ منَعُـــوا تَهامَـــةَ حُيـــْ   ثُ تَحْمـــي بعْضَـــها العـــرَبُ
زمـــانُ نفَـــى العَزيـــزُ بهـــا   الـــذليلَ وَأمْعـــنَ الهـــرَبُ[٧]

يفتخر الشاعر بنسبه لقبيلته قريش، بأنّها فرسانها شجعان حلماء لا يأبون الذل والهوان، والضيم والخسران.

ويستمر الشاعر بتقديم قصائده المفتخرة لقبيلته قريش، مؤكداً بذلك عراقه أصله، وشجاعته المستمدة من شجاعة قبيلته، وقوته وفروسيته، اذ يقول[٨]:

كُلَّمـا أوْ جفَـتْ إلـيْهمْ ركَـابي   رَجعَـتْ مـنْهمُ بأهـلٍ وَمـالِ
إنَّ شـيْباً مـنْ عـامرِ بـن لُـؤيّ   وفتُـوَّا مـنْهمُ رقـاقَ النِّعـالِ
لَـمْ يَنَـامُوا إذْ نَـامَ قَـوْمُ عـن الوتـْ   رِ بحـرْكٍ فعَرْعَـرٍ فالسِّـخالِ
عَلَّقُـوا أرْسـنَ الجيّـاد وَمَـرُّوا   جانبيْهـا بشـاحجَاتِ البغَـالِ
كُـلَّ خيفانـةٍ مُجنَّبـة الرّجْـ   ـليْنِ عَجْلـى خفيفـةٍ فـي الشّـمالِ
مرَطـى الشَّـدِّ كالعُقـابِ تـدَلّتْ   بـيْن نيقـيْنِ مـن رُءوسِ الجبـالِ
وَهَـزيمٍ أجـشَّ يسْـتنُّ بالـدَّا   رعِ يـومَ النِّهـابِ والأنْفـالِ
جُرْشـعٍ يَمْـلأُ الحـزامَ، كـأَنَّ الـ   ـجَهْد يَجْلُـو أديمَـهُ بصـقَالِ
بُـدِّلتْ بالشَّـعير والخفْـض والقـتّ   وَمَسْـحِ الغـلام تحـتَ الجـلالِ
غـارة اللَّيـل والنَّهـار فمَـا تُصْـ   ـبحُ إلا مُحِسَّـةً بقتَـالِ[٩]

ومن شدة فخره بقبيلته واعتزازه بها[١٠]، يمزجُ بين فخره بنفسه وعشيرته وقبيلته، إذ يقول[١١]:

وَقَـدْ نلْـتَ فرْعـاً مـن لُـويٍّ بـن غالـب   دعـائم، كانـتْ مـن خيـار الـدَّعائمِ

ويفتخر الشاعر في موضع آخر بشجاعته، وحسن اخلاقه وخصال الكريمة ومبادئه التي تأبى معاشرة الخل الكاذب، ويقول مفتخراً بنفسه[١٢]:

إنّـي أمـرُؤُ لا يطَّبـي   وُدّي الخليـلُ الكـاذبُ
حسَـنُ الخليقَـةِ والمـوَدّة   مـا اسْـتقامَ الصّـاحبُ
هَنّأتـهُ سـلْمي وأعْـ   ـسلم بعْـدُ كيْـفَ أحَـاربُ
عنْـدي لجـامُ للرّجـا   لِ وَمخلـبُ وَكَلالـبُ
مـنْ ألْقـهِ فـي رأسـهِ   يُلْحـحْ عليـهِ القَاتـبُ
ويَلـنْ ويَنْسـقْ لـي كمَـا   سـاقَ المطـيَّ الرّاكـبُ

ومن شدة حبه وعشقه لقومه، فأنّه يبكي عليها، إذا أصابها ألم وحزن، فيقول[١٣]:

لـو بكـتْ هـذه السَّماءُ علـى قوْم   كـرام بكـتْ عليْنـا السّـماءُ
نحْـنُ منّـا النَّبـيُّ والصـدّيقُ   منّـا التقـيُّ والخلُفـاءُ

ويتحول الشاعر الى ابيات مليئة بالاحساس والعوطف الجياشة، وبالاعتزاز الشديد والحب الكبير، نحو قبيلته قريش، اذ يقول[١٤]:

حَبَّذا العَيشُ حينَ قومي جميعُ   لمْ تفَرّقْ أمُورها الأهْواء
قبْلَ أنْ تَطْمعَ القبائلُ في مُلْ   كِ قُريْشٍ وتشْمتَ الأعداءُ
أيُّها المشتهي فناءَ قُريشٍ   بيد الله عُمْرُها والفَناءُ

الابيات اعلاه تدل على ان الشاعر قرشي في آماله[١٥]، وحريص كل الحرص على وحدة قبيلة قريش وحقها في حكم سائر العرب. ونجد الشاعر يؤكد على نزعته القرشية، من خلال أبياته، وأنّها ستظلُ عزيزة الجانب عالية المجد، مرفوعة الهامة.

ويمضي الشاعر في مدح قبيلة قريش، متخذاً شخصياتها منفذاً لتجسيد نزعته القرشية، ومدح مناقبهم من خلال مديحه لعبد الله بن الزبير: اذ يقول[١٦]:

أنْتَ أبنُ معْتلجِ البطا   حَ كُديِّها فكدَائها
فالبيْتِ ذي الأرْكانِ فالـ   مُستَنِّ من بطحائها
فمَحلِّ أعْلاها الى   عرفاتُها فحرَائها
منْ سرّها فيها ومَعـ   ـدنِ برّها ووَفائِها
أوْفى قُريُشٍ بالعُلى   في حُكمْها وقضَائِها
وأشدُّها آخيَّةً   في عزّها وثَرائها
وأمدُّها عنْدَ العُلى   كفّاً بحبْلِ رشائِهَا
ولأنتَ أعْلمُها بهَا   وأصحُّها منْ دائِهَا
وأَتَمُّها نسباً إذا   نُسبتْ الى آبائِهَا
وَلدَتْكَ عائشَةُ التي   فضَلتْ أرُومَ نسائِهَا

يضفي الشاعر على ممدوحه عبد الله بن الزبير، من المعاني الدينية والسمات العربية الأصلية، محاولاً بذلك تثبيت وتأييد خلافته ونصر دعوته، وترغيب الرعية فيه، فهو من سلالة ونسب قريش، ومن الاشراف والفرسان من بني قريش، ومن اعظمها منزلة وأرفعها شأنا.

ويمضي الشاعر في مدحه الشخصيات بني قريش، وملوكها وخلفائها مؤكداً اعتزازه بالقبيلةَ وبنسبها وعراقة أصلها، إذ يقول مادحاً مصعب ابن الزبير[١٧]:

لَمصُــعبُ عنْــدَ جــدَّ القَّــوْ لِ أكْثرُهـــا وأَطيَبُهـــا
وَأمْضـــاها بألْويـــةٍ يسُـــدُّ الفـــجَّ مقْنبُهـــا
إذا خرجـــتْ برابيـــةَ ســـراياهّا وَموْكبُهـــا
بنصْـــرِ الله يَعْلوُهـــا وَيمريهـــا ويَغْلبُهـــا
ويـــذْكيها بكفّيـــهِ إذا مـــالاحَ كوْكبُهـــا

ويتخذ الشاعر من مديحه لمصعب، مديحاً للقرشيين جميعاً، إذ يقول[١٨]:

فأباحَ العراقَ يَضْربهُمْ بالسيفِ صـــلْتاً وفـــي الضِّـــراب غـــلاءُ
غُيِّبـوا عــنْ مــواطنٍ مُقطعــاتِ لــيسَ فيهــا إلاّ السُّــيوفَ رِخَــاءُ
فسـعوا كــيْ يُفللِّــوكَ وَيــأبى الــ ــــلّهُ إلاُ الـــذّي يـــرى ويشـــاءُ
حســـداً إذْ رأوْكَ فضَّـــلك اللّــــ ـــهُ بمـــا فُضِّـــلتْ بـــه النُّجبـــاءُ
فعلـــى هــدْيهم خرجْــت ومـــا طِبُّكَ فـــي الله إذ خَرجْـــتَ الرِّيـــاءُ
إنْ تعـشْ لانــزلْ بخيــرْ وإنْ تهَــلكْ نَــزُلْ مثــل مــا يــزُولُ العمــاءُ
إنَّمــا مُصــعبُ شــهابُ مــن اللّـــ ـــهِ تجَلّــتْ عــنْ وجْهــهِ الظّلْمــاءُ
ملْكـــهُ مُلْـــكُ قـــوّةٍ لـــيسَ فيـــه جبـــرُوتُ ولا بـــه كبْريـــاءُ
يتّقـــي الله فـــي الامـــور وقـــد أفْـ ـلـحَ مـــنْ كـــانَ همَّـــهُ الاتّقـــاءُ
إنّ لله درَّ قـــــومٍ يريـــــدُو نـــكَ بـــالنَّقْصِ والشَّـــقاءُ شـــقاءُ
بعْـدَ مـا أحْـرزَ إلالــهُ بـك الرَّتْــ قَ وهـــرَّتْ كِلابـــكَ الأعْـــداءُ[١٩]

مدح الشاعر مصعب بن الزبير، ويصفه بصفات الكمال، ويجلهُ، مجسداً لصورة الفارس الشجاع، مشعلاً الغيرة والحسد في نفس عبد الملك بن مروان، فهذا الكوكب الوضاح، الذي يمحو آية الليل قادرا على توجيه كلمة قريش ولم شملها، فهذا الفارس خير من يمثلهم ويحميهم ويحافظ عليهم.

ومن الشخصيات التي مدحها ابن قيس الرقيات، وسلط الضوء عليها، مدحه لعبد العزيز بن مروان[٢٠]:

لاحَ سـناهُ مـن نخـلِ بيثْـربَ فالْـ ـحرَّةٍ حتـى أضـا لنـا إضـما
أسْـقى بـه اللهُ بطـنَ طيْبـة فالـ ـرَّوْحَاءِ فالأخشـبيْنِ فالحَرَمـا
أرضُ بهـا تنْبـتُ العشـيرة قـدْ عشْـنا وكُنّـا مـنْ أهْلهـا علمـا
فُجعْـتُ بـالغُرّ مـن أُميّـة حـا شـا واحـداً نجتْلَّـي بـه الظّلمـا
أعنـي ابنَ ليلـى عبد العزيـز ببا بليـوُنَ تغْـدُ أجفانـهُ رذُمـا
يلتَفِـتُ النَّـاسُ حـول منبـره إذا عمُـودُ البريَّـة انهَـدَما
مجـرَّبُ الحـزم فـي الامـورِ وانْ خفَّـتْ حُلـومُ بأهْلِهـا حَلُمَـا[٢١]

يضفي الشاعر في الابيات اعلاه، على مدوحه صفات وسقات اخلاقية رفيعة، مجسداً عراقة نسبه، وطيب أصله. اذ يقول أيضاً[٢٢]:

أثـنِ علـى الطَّيـب ابـن ليلـى إذا أثنيْـتَ فـي دينـهِ وفـي حسَـبهْ
مـنْ يصْـدقُ الوعْـدَ والقتـالَ ويخْـ شَـى الله فـي حِلْمِـهِ وفـي غَضَـبهِ
ومَـنْ تفُـيضُ النَّـدى يـداهُ ومـنْ يَنْتَهِـبُ الحمْـدَ عنـدَ مُنْتهبـهْ
أُمُّـكَ بيْضـاءُ مـن قضـاعة فـي الْـ بيـتِ الـذي يُسـتَظلّ وفـي طُنُبـهْ
وأنْـتَ فـي الجَـوْهَرِ المهُـذَّب منِ عبـدِ منـافٍ يَـداكَ فـي سَـببَهِ

يمدح الشاعر عبد العزيز بن مروان، بصفات تؤكد على عراقة نسبه من جهة امه، وتكاد هذه الظاهرة، (تجسيد النزعة القرشية) تميزه عن شعراء عصره.

ويمضي الشاعر في مدح أو فخر أو رثاء بعض الشخصيات لتجسيد عراقة ونسب قبيلته قريش، اذ يقول مادحاً بشر بن مروان[٢٣]:

يابشْـرَ يـا ابـن الجعْفريَّـة مـا خلـقَ الإلـه يـدَيْكَ للْبُخْـلِ
جـاءتْ بـه عُجـزُ مُقابلـةٌ مـا هُـنّ مـنْ جَـرْمٍ ولا عُكْـلِ

***

أنْـتَ ابـنُ الأشـياخ الـذّين لُهـمْ فـي بطـنِ مكَّـة عِـزّةُ الأصْـلِ

اسبغ الشاعر على ممدوحه صفات اخلاقية، تؤكد على عراقة نسبه وكرمه النابع من طيب اصله ونسبه من جهة امه الحرة النجيبة الشريفة.

ومن الشخصيات التي مدحها الشاعر عبد الله بن جعفر[٢٤]:

للقّــاءِ ابــنِ جَعْفَــرٍ ذي الجنَاحَيــْ نِ الكـريمِ النِّصـابِ فـي الأسْـلافِ
حـلّ فـي الجـوْهَرِ المهـذّبَ مـنْ هَـا شِـمَ أهْـلِ النَّـدى وأهْـلِ العَفـافِ
عُــودُهُ فــي الكِـرَام عــودُ نُضــارٍ لا كعيــدانِ خــروْعٍ وخِــلافِ
يَهَــبُ الخَيْــلَ والوَلائــدَ والبُخــ ــتَ بأَجلالهــا مــعَ الأخْفــافِ
ذاكَ عبْـدُ الإلــه ذو الجُـودِ والفضــْ لِ و[ذو] المُكْرمــاتِ والاسْــعافِ
مـا بقـا فـي الـبلادِ عُـودُ نضـيرُ فـي أرَاكٍ أوْ ســــلامٍ وغَــــافِ

هذه الابيات تؤكد على مدح عبد الله بن جعفر، وتجسد عراقة نسبه واصله:
ويقول أيضاً مادحاً عبد الملك بن مروان(٢٥):

إنَّ الفنيـق الـذي أبُـوهُ أبـو الــ ــعاصي، عليْـه الوقـارُ والحُجـبُ
خليفَــــةُ اللهِ فــــوْقَ منبــــره جفّــتْ بــذاك الأقــلامُ والكُتُــبُ
يعْتــدلُ التّــاجُ فــوقَ مفرقــة علــى جبــينٍ كأنّــهُ الــذَّهبُ
أحفظُهــمْ قــوْمهمْ بــاطِلهمُ حتَّــى إذا حــاربوهُمُ حربــوا
تجــرّدوا يضْــربونَ بــاطِلهم بــالحقّ حتــى تبــينَ الكــذبُ
لَيْســوُا مفــاريحَ عنــدَ نــوْبتهمْ ولا مجــازيعَ ان هــمُ نكبُــوا

يسبغ الشاعر على ممدوحه، بهالة من الصفات الدينية لتسجيد صورة الخليفة العربي المسلم من النسب والحسب والشجاعة والصدق والكرم والعلم، ويمدحهُ أيضاً بالتاج والتلاق الجبين، نوع من احداث تطوير لمضامين المدحية، فيقول(٢٦):

يَعْتــدلُ التّــاجُ فــوقَ مفْرقــه علــى جبــينٍ كأنّــهُ الــذَّهبُ

فسمع الخليفة عبد الملك بن موران هذا البيت فأُعجب به.

ومن شدة تعلقه بقبيلته قريش وحبه لها، فأنه يحزن لحزنها، ويفرح لفرحها، فان ملامح الحزن والألم تظهر في ملامح وجهه وبتعابير وبكلمات مؤثرة ومجسدة في قصائده، فانه يصور لنا ما أختلجت نفسه من عواطف حزينة اتجاه قومه وعشيرته، وهنا يصور لنا قبيلة بكر بن وائل وتميم عن نصرتها، اذ يقول(٢٧):

فمــا نصــحَتْ لله بكْــرُ بــنُ وائــلٍ ولا صــبَرتْ عنــد اللّقــاءِ تمــيمُ
ولــوْ كــانَ بكرْيــاً تعطّــف حوْلــهُ كتائــبُ يغْلــي حمْيُهــا ويَــدُومُ
ولكنّــهُ ضــاعَ الــذِّمامُ ولــمْ يَكُــنْ بهــا مُضــريُّ يــومَ ذاكَ كــريمُ

ويعبـر الشـاعر عـن ألمـه وحزنـه لفـراق أحبابـه، واصـدقائه وحرصـه الشـديد علـى ذكـرهم وتمجيدهم، اذ يقول راثياً عبد الواحد[٢٨]:

مَـا خيْـرُ عَـيْشٍ بـالجزيرةِ بُعْـدها　　عثـرَ الزَّمـانُ ومـاتَ عبـدُ الواحـد

مـاتَ النَّـدى والجُـودُ معـهُ وضـمّناً　　قبْـرَ الكـريمِ الأرْيحـيِّ الماجـدِ

ذهـب الرّجـالُ الصـالحون وبُقِّيـتْ　　ضـعفى الرِّجـال لـدى الزَّمـانِ الفاسـدِ

يضفي الشاعر على ممدوحه عبد الواحد بصفات اخلاقية رفيعة، واسلامية متمثلة بخصال حميدة، واخلاق نبيلة إسلامية خلد ذكره من خلالها.

ويمضي الشاعر معبراً عن حزنه وألمه من فراقه احبابه، واصدقائه، ويدعو للاخذ بثأره من اعدائه الأمويين الذين وجهوا أهل الشام نحو المدينة لقتالهم، مقسماً بالله ان يأخذ ثأره منهم فيأسر نسوتهم ويقتل أبنائهم كما فعلوا بهم، اذ يقول[٢٩]:

والله أبـــرحُ فـــي مقدَّمـــةٍ　　أهـدي الجيُـوشَ علـيِّ شـكَّيتهْ

حتّـــى أُفجِّعُهـــمْ بـــإخوَتهمْ　　وأســوقَ نسْــوتهُمْ بنسْــوتيهْ

الملاحظ، ان الشاعر ابن قيس في دعمه وتأييده لنزعته القرشية وعصبته المضرية لم يسلك فيها مسلك البرهنة والاحتجاج العقلي كمل فعل الكميت[٣٠]. بل فسح المجال أمام عاطفته الحزينة وجنح نحو الاساليب التصويرية التقريرية فانه (فرق بين العاطفة الدينية والعاطفة القبلية)[٣١].

ويقول راثياً طلحة الطلحات[٣٢]:

يتقـــي الـــذّم بالفعَـــالِ ويبْنـــي　　مجْـدَ مـنْ قـدْ تضـمنتْهُ القبـورُ

بسجســـتانَ قـــدّسَ الله منـــهُ　　قـد ثـوى فـي الضَّـريحِ خيـرُ كثيـرُ

خلفتْـــهُ لنـــا شـــمائلُ عبـــد الـــ　　ـلـــه لا جاحـــدُ ولا منْـــزُورُ

مدح الشاعر شخصية (طلحة الطلحات) ورثاها بعاطفة متأججة وصادقة وألفاظ عذبة، فمدحه بـ(صيغة الماضي بما يمتدح من صفات الشجاعة والكرم وعراقة النسب..)[٣٣].

ويقول أيضاً راثياً طلحة الخزاعي والي سجستان[٣٤]:

نضّـــرَ الله أعْظُمـــاً دفنُوهـــا   بسجسْـــتانَ طلحـــةَ الطَّلحـــات
كـــانَ لا يحْـــرِمُ الخليـــلَ ولا يعـــْ   ـــتلُّ بالبخْـــلِ، طيـــبَ العـــذراتِ
سَـــبطَ الكـــفّ بـــالنَّوال إذا مـــا   كـان حـودُ البخيـل حسنَ العِدات
ولَّدتـــهُ نســـاء آل أبـــي طلْـــ   ـــحةَ أكـــرمْ بهـــنّ مـــنْ أمهَـــاتِ
يهـــبُ اليُخْـــتَ والنّجائـــبَ والقَيْـــ   ـــنةَ تمشـــي فـــي الـــرَّيْط والحِبـــراتِ

وتتحول نزعته القرشية الى حنين وغربة واشتياق ولوعة وحزن لفراق القبيلة، فنجده يقول سائلاً الطلول في الماطرون فلا يصد عنها الجواب، متذكرا قومه وعشيرته حين كانوا ملوكاً في سالف الزمان(٣٥):

فضُـــميْرُ فالمـــاطرونَ فحـــورا   ن قفـــارُ بســـابسُ الأطـــلال
لـم تجبْنـي منهـا الطُّلـولُ ولـمْ أمـ   ـــلكْ دمُوعـــاً تســـيلُ كالأوشـــالِ
وتـــذكَّرْتُ معْشَـــري وهـــمُ كـــا   نـــوا ملُوكـــاً فـــي ســـالفِ الأحـــوالِ
ملْكهُـــمْ صـــالحُ ودَهـــرُهمْ دهـــْ   ـر نقـــيُّ وَشَـــرُّهمْ غيـــرُ عـــالي

يحن الشاعر الى وطنه وقومه وعشيرته، فيسال الاطلال، فلا تجيب، فيقف الشاعر متسائلاً ومتحيرا فتشده عاطفة جياشة وحنين وشوق الى قبيلته قريش.

ويقول أيضاً متذكراً ديارهم فيحن اليها(٣٦):

كـلَّ يـومٍ ألقـى ابـنَ شـانئهِ ليـ   ـسَ عـن الشـرّ مـا اسـتطاع بـالي
حوْلـــهُ قوْمـــهُ وقـــوْمي بـــأرضٍ   حـــرمٍ دونهـــمُ حنـــينُ الشَّـــمالِ
ومَلـــوكُ فـــارقتهُم افردونـــي   وصـــرُوفُ الأيـــام بـــي واللّيـــالي

يعبّر الشاعر عن حنينه واشتياقه، الى قبيلته؛ وديارها التي ارتبطت به وأثرت في تكوين شخصيته وميوله النفسية، فعندما ابتعد عن أرضه وقبيلته اعتراه حنيناً لا يفارقهُ وذكريات اهله واحبته لذا هي (من علامة الرشد ان تكون النفس الى مولدها مشتاقة والى مسقط رأسها تواقة)(٣٧). وكما قال البعض (اذا شئت ان تعرف وفاء الرجل، وحسن عهده، وكرم اخلاقه، وطهارة مولده، فأنظر حنيه الى أوطانه، وتشوقه الى اخوانه)(٣٨).

فهنا يقف الشاعر مصوراً غربته وما سيطر عليه من ألم الفراق، وذكريات الأهل، اذ يقول حين كان بديار عامر(٣٩):

وَأغْتـر ابـي عـنْ عـامرِ بـن لـؤَيّ   بـــــبلادٍ كثيـــــرةِ الأقتـــــالِ

من خلال ابياته وجدتهُ يمازج بين غراضه الشعرية، فانه يتخذ (المديح، الغزل، الفخر) منفذاً لنزعته القرشية، وتاكيدا على أصالة نسبه وعشيرته، وطيب اصله كما في قوله متغزلاً بأم البنين[٤٠]:

أُمَّ البنـــينَ ســـلَبتْني حلْمـــي — وقَتلْتنــــي فتَحمَلَّـــي إثْمِـــي

وَتركْتنـــي أدْعُـــو الطّبيـــبَ ومَـــا — لطبيـــبكُم بالـــدَّاءِ مـــنْ علـــم

بـــاللهِ يـــا أمَّ البنــــينَ ألَـــمْ — تخشَـــيْ علْيـــكَ عَواقِـــبَ الإثـــمِ

فنجد الشاعر يتخذ غزله بأم البنين سلاحاً يواجه اعداء قبيلة قريش، وارضاءً لاهوائه السياسية[٤١].

فنجد مشاعر وعواطف الشاعر من خلال الابيات متباينة بين الصدق وحرارة الوجد وبين قوتها، كما يقول الباحث غانم جواد واصفاً ذلك: (فأنَّ الشاعر لم يتخذ هذا الفن للتعبير عن عاطفه حب مشوبه أو وصف لوعة محب صادفة، أو لتصوير ما ألم بالشاعر من بين وحرقة أو التياع قلب أكتوى بالهوى وتترى بناره)[٤٢]، ويؤكد الفكرة د. محمد حسين الصغير قائلاً: (فكأنما ينحت من صخر، أو يصقل في حديدة، لأنّهُ لم يقصد اليه موضوعياً)[٤٣].

لهذا نجد الشاعر ابن قيس الرّقيّات قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بقبيلته قريش، فأثرت على مخزونه الفكري والثقافي[٤٤].

وبعد فقد توصل البحث الى:

- كشف البحث عن شاعر قريشي سياسي كبير، وغزلي مرهف رقيق ذي ابداع شعري واضح.
- اظهر البحث معالم الابداع والتطور فيها، فوجه النظر نحو شاعر كان يعبر عن افكاره ومبادئه واهدافه الخيرة التي عكست نزعته، القريشية، وولائه المطلق لها عند طريق اعتناقه للمذهب الزبيري الذي مثل طموح الشاعر وهدفه في جعل حق الخلافة لقبيلة قريش وحدها، على ان يكون مركز الحكم الحجاز.
- قدرة الشاعر الفنية والابداعية في صياغة أساليب فنية متنوعة، كوحدة الغرض الموضوع، والواقعية فاكسب شعرهُ رونق التطور والابداع والتجديد.
- اجادة الشاعر في صياغة افكاره عن طريق عرض الاغراض الشعرية والمزاوجة بينها، في اظهار الغرض الرئيس هو تجسيد النزعة القريشية.
- قدرته على اختيار ألفاظه وصياغتها في نسق فريد ليعبر بهما عما يريد. فجاءت الفاظه رقيقه عذبة في تراكيب محكمة.
- قدرة الشاعر على التصوير الاشياء الواقعية، فاستطاع ان يرسم صورة شعرية

واقعية قريبة مألوفة، وقد اعانه على ذلك بيئته الحجازية الخلابة وواقع حياته الحضرية، مستعينا بالصورة الابداعية وعلى فنون بيانية بديعة.

- اظهر البحث ثقافة الشاعر ابن قيس الرّقيات الإسلامية، مجسداً ذلك في اشعاره وتصوير ألفاظه ومعاييها، لهذا يعدُّ شعرهُ انموذجاً خالداً مازجا بين الأصالة والتجديد مسخراً كل طاقاته الفنية والابداعية في ذلك.
- كشف البحث عن اعلام وشخصيات مرموقة في العصر الاموي، التي لها باع طويل في مجالات الحركة الادبية، ولها دور في تطور الادب وازدهاره.

قائمة المصادر والمراجع

(١) ينظر: الاغاني، ابو فرج علي بن الحسين الاصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، مطبعة مصورة عن دار الكتب وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة (د. ت)، باشراف: محمد ابو الفضل ابراهيم، هيئة المصرية للتأليف والنشر، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م: ٥/ ٧٦، انه عبيد الله بن قيس الرقيات بن شريح بن مالك بن ربيعة بن أهيب بن ضباب بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر بن النظر، فهو قرشي من جهة أبيه وأمه، ينظر: عبيد الله بن قيس الرقيات حياته وشعره، د. ابراهيم عبد الرحمن، مطبعة حكومة الكويت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦ : ٦٣–٦٨ ؛ ينظر: خزانة الادب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيق ونشر: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، بمصر، ط٢، ١٤٠٢هـ– ١٩٨١م، ٧/ ٢٨٤.

(٢) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار صادر– بيروت، ١٣٧٨هـ– ١٩٥٨م: ٨٩، ٩٠، [ويروى]: (ان منا النبي)، (ذاك منا)، ابن دومة: المختار، أي نغّص ابن دومة مُلكَهُ.

(٣) المصدر نفسه: ٤٥، ٤٦، انقى القراقير: هذا مثل يريد: ما كان من صغير نفيته، وما ان من كبير حطمته، الذرى: أعلى كل شيء، والمهرة: ذات مهر أي لم تسب، بنو ذكوان: حي من بني سليم، الضفيرة: حجارة تبنى من الماء مثل المُسَنّاة.

(٤) المصدر نفسه: ٤٦.

(٥) المصدر نفسه: ٥٠، [مراتب]: منازل، له مرتبة أي منزلة.

(٦) المصدر نفسه: ١٤٢، (وضنؤ). الضئن والضنؤ: النسل.

(٧) المصدر نفسه: ١٤٣، [ويروى]: (أرضها).

(٨) المصدر نفسه: ١١٤، ١١٥، خيفان: اذا نبت ريشه ولم يطرا فهو الكتفان، التجنيب: تفريج في أرجل الخيل وهو يستحب في الخيل ويكره في الابل، والتجنيب أعوجاج اليدين؛ [هزيم]: فرس جواد [أجش]: في صوته، [جرشع]: عظيم الجنبين، كأنه اذا جهد يصقل.

(٩) المصدر نفسه: ١١٥؛ السخال : موضع

(١٠) المصدر نفسه: ٦٠، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠.

(١١) المصدر نفسه: ١٤٦.

(١٢) المصدر نفسه: ٤٩، ٥٠، لا يطبي: أي لا يدعوه يقال: طباه يطبوه، واطباه يطبيه اذا دعاه اليه؛ هناته [ويروى]: وهنيئة سلمى)؛ السلم: الصلح، (يلصح) [ويروى] (الغارب) [وهو] مقدم السناء؛ و[يروى]: (الجالب) و(بلى).

(١٣) المصدر نفسه: ٨٩.

(١٤) المصدر نفسه: ٨٨.

(١٥) ينظر: تاريخ الادب العربي، حنا الفاخوري، مطبعة البولية، بيروت، (د.ت): ٣٠٦، ينظر: تاريخ الشعر السياسي الى منتصف القرن الثاني، احمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٥، ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م: ٢٥٧.

(١٦) المصدر نفسه: ١١٧، ١١٨، بالعلى: و[يروى]: (بالتقى)؛ [ويروى] (ولبطن عائشة)؛ ويقصد بعائشة هنا انصبت القصيدة في مديح عبد الله خالة اخت اسماء بن ابي بكر والخالة ام.

(١٧) المصدر نفسه: ١٢٤، مقنبها: [المقنب]: خمسمائة الى الالف، الفج: الطريق والجمع فجاج، والمقنب ما بين الخمسين الى الستين والجمع مقانب، برابية: [ويروى] (برايته)، يمر بها: يستخرج ما عندها كما يمرى الضرع، يستخرج ما فيه من اللبن، واصل المري: المسح، ويذكيها: يوقدها ويشعلها، وكوكبها: معلمها.

(١٨) المصدر نفسه: ٩٠، ٩١؛ غلاء: غال، لا يقدر عليه، والضرب عال لا تقدر عليه كل انسان، يقللوك: (يُضلِّوُك).

(١٩) المصدر نفسه: ٩١؛ العماء: السحاب، جبروت [ويروى]: جبروت منه ولا به كبرياء؛ الضِّراب :لا يقدر عليه كل انسان

(٢٠) المصدر نفسه: ١٥٢؛ راح: و[يروى]: (راح)؛ إضم: جبل.

(٢١) المصدر نفسه: ١٥٢، عشنا و[يروى] (غنما)، يقول يغنمون اذا راونا كانا غنيمة عندهم، و[يروى]: (تكثر)؛ بابليون: اسم عام لديار مصر في لغة القدماء، وقيل هو أسم لموضع الفسطاط خاصةً

(٢٢) المصدر نفسه: ١٤، بيضاء: نقية من الدنس، يقول: هو ملك يستظل في بيته لانه طويل كبير، الهاء في لفظة (سببه) للبيت أو للجوهر.

(٢٣) المصدر نفسه: ١٩١.

(٢٤) المصدر نفسه: ٣٩، ٤٠، [النصاب]: الاصل، [يروى]: (والاشراف)، ويروى: عوده في العيدان، ويروى: (وفي العيدان عود خلاف، وينظر: المصدر نفسه: ٨٢، ٨٣ ؛ [مع الاخفاق]: مع خدمها، والاسعاف، ان يسعف من ساله بحاجته، وبقا: لغة طيء، ويروى (وفي سلام كفاف)، و[غاف]: شجر بعمان، [ويروى]: (غصن). [نضير].

(٢٥) المصدر نفسه: ٥، ٦، ابو العاصي: يعني عبد الملك بن مروان، الحفيظة: الغضب، حربوا: غضبوا.

(٢٦) المصدر نفسه: ٥، ٦.

(٢٧) المصدر نفسه: ١٩٦؛ وينظر: المصدر نفسه: ٩٩، ٩٥، ٩٦.

(٢٨) المصدر نفسه: ٧٩، وضمنا: فضمنا، عبد الواحد بن ابي سعد بن قيس بن وهب بن وهبات بن خباب بن حجير بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي، ينظر الديوان: ٧٩.

(٢٩) المصدر نفسه: ١٠٠، ابرح: ابن لا ابرح، شكيته: السلاح السابع، ينظر: المصدر نفسه: ٩٦.

(٣٠) ينظر: شرح الهاشميات، للشاعر الكميت بن زيد الاسدي (ت ١٢٦هـ) مطبعة مدن مصر، ط٢، (د. ت)، ٢٢، ٢٣.

(٣١) روائع الادب في العصور العربية الزاهرة: عصر الراشدين وبني امية، د. محمد نبيه حجاب، شرح وتعليق، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣م، ١٠٦.

(٣٢) الديوان: ١٧، جاحد: قليل الخير.

(٣٣) نقد الشعر: قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي بمصر، القاهرة، ١٩٧٨م، ٩٨.

(٣٤) الديوان: ٢٠؛ سبط الكف: أي ليس فيها تقبض عن من يساله، القينه قال الاصمعي: الامة في كل حالاتها.

(٣٥) المصدر نفسه: ١١٤، ويروى (فحوران) فصب الماطرون وهو حرف واحد كهيئة جمع، شبهه بنون الجميع على هجائين؛ الاوشال: مفردها وشل وهو الماء الغزير.

(٣٦) المصدر نفسه: ١١٣، ١١٤ ؛ شانئةٍ : مبغضةً . آلي (من ألا) : مقصر.

(٣٧) ديوان المعاني: ابو الهلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، عنيت بنشره مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٢هـ، ٢/ ١٨٧، محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء حسين محمد الراغب الاصبهاني، العامرة الشرقية: مصر، ١٣٢٦هـ: ٤/ ٦٢٠.

(٣٨) مطالع البدور في منازل السرور: علاء الدين بن عبد الله البهائي القزولي، ادارة الوطن، مصر، ١٢٩٩هـ: ٢/ ٢٩٢.

(٣٩) الديوان: ١١٣؛ الاقتال: الاعداء، قتل واقتال.

(٤٠) المصدر نفسه: ١٤٩.

(٤١) ينظر الغزل عند العرب: ابو رحاب حسان، القاهرة، ط١، ١٣٦٦هـ- ١٩٤٧: م: ٢٠.

(٤٢) الغزل السياسي في العصر الاموي: غانم جواد رضا، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٣م، ٦٥.

(٤٣) الصورة الادبية في العصر الاموي: رسالة مقدمة من الباحث محمد حسين الصغير الى مجلس كلية الاداب- جامعة بغداد- ماجستير في اللغة العربية، البحوث والدراسات: ٢٧١.

(٤٤) ينظر: شعر عبيد الله بن قيس الرقيات دراسة موضوعية فنية، جنان فاضل علي الجعيفري، رسالة ماجستير، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، ٥٤.